

من مسرح الحرب

• أمهات الرجال

تأليف: بير سيفال وايلد

• رادا

تأليف: ألفريد نويز

ترجمة وتقديم: د. محمد عزب

مراجعة: د. محمد مبارك بلال

العدد الثالث عشر

يناير 2010

تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت



من مسرح الحرب

• أمهات الرجال
تأليف: **بيرسيفال وايلد**

• رادا
تأليف: **ألفريد نويز**

ترجمة وتقديم:

د. محمد عزب

مراجعة:

د. محمد مبارك بلال

الطبعة الأولى ٢٠١٠

من
المسرح العالمي

تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
دولة الكويت

almasrahalaalami@yahoo.com
almasrahalaalami@gmail.com

www.kuwaitculture.org

من مسرح الحرب

- **أمهات الرجال** - تأليف: بيرسيفال وايلد
- **رادا** - تأليف: ألفريد نويز

ترجمة وتقديم: د. محمد عزب

مراجعة: د. محمد مبارك بلال

الطبعة الأولى ٢٠١٠ - دولة الكويت

ISBN 978-99906-0-299-9

رقم الإيداع: (٢٠٠٩/٠٤٢)

من مسرح الحرب

● **أمهات الرجال** – تأليف: بيرسيفال وايلد

● **رادا** – تأليف: ألفريد نويز



نبذة عن المؤلفين

بيرسيفال وايلد **Percival Wilde**

- ولد في مدينة نيويورك بالولايات المتحدة عام ١٨٨٧.
- له مسرحيات متميزة عُرضت في برودواي، وهو من رواد المسرح الواقعي.
- توفي عام ١٩٥٣.

ألفريد نويز **Alfred Noyes**

- ولد في إنجلترا عام ١٨٨٠.
- عمل بتدريس الأدب الإنجليزي في جامعة برنستون.
- توفي عام ١٩٥٨.



مقدمة بقلم المترجم

نشأة وتطور أدب الحرب

يقترن تاريخ الحرب ببدايات وجود الإنسان على كوكب الأرض، كما أن العلاقة بين الحرب والأدب علاقة أزلية ومتأصلة. لقد ظلت ساحات الوغى مرتعا خصبا للأدب بأشكاله المتباينة، حيث أماط بدوره اللثام عن ملامح التجربة الإنسانية في ميادين الصراع والقتال.

سجل المصريون القدماء أخبار حروبهم على ورق البردي وأحجار المعابد. ثم اهتدى الإغريق إلى الملحمة لتسجيل صولاتهم وجولاتهم، ولعل إلياذة هوميروس هي أشهر الأمثلة على الإطلاق.. خطها هوميروس خلال القرن الثامن قبل الميلاد. ومجد فيها بطولات صناديد اليونان، لكنه لم يغفُل عن أن يعرض بين طياتها بعضا من مآسيها. ما لمح به هوميروس صرح به يوروبيديس في مصارعه وأرسطوفينيس في هزلياته، فكلاهما قاد حملة شعواء على حرب طروادة التي أتت على الأخضر واليابس. نجح يوروبيديس وأرسطوفينيس في جلب الحرب إلى المسرح وانتزاع جوانبها الإنسانية من فكي الشعر الذي استحوذ، كلون أدبي، على هذه التجربة العاصفة. ويبقى أن نشير، في سياق حديثنا عن اليونان، إلى الإسكندر الأكبر أروع ما قدمه الإغريق للعالم القديم.

ننتقل من اليونانيين إلى الرومان الذين قدموا للعالم البطل كما صوره أرسطو، نبيلَ المقصد والغاية وكريما في سجاياه وشمائله، لكنه لا يبرأ من موطن ضعف، ومن هفوة إلى كبوة يسير إلى نهايته التراجيدية. فمارك أنطونيو على سبيل المثال بطل جسور مغوار، لكنه يفتن بالجمال الساحر الأخاذ لكليوباترا فتكون هذه كبوته. استقر عند البطل الروماني أن الموت بخنجره ونصله أشرف من الأسر والذل على يد الأعداء، وهذا ما فعله بروتس حين ضُيق عليه الخناق. أحب قيصر لكنه أحب روما أكثر، ومهما كان تقديره للموقف الذي دعاه إلى طعن القيصر فقد أصر عليه حتى النهاية، مما جعل مارك أنطونيو يجله حيا وميتا، وينعته بأنبل الرومان.

في العصور المظلمة تبلورت فكرة الفروسية. وكان فارس هذا العصر دمث الخلق لين الجانب لا يتوانى في نصرة المظلومين والضعفاء، يفر ويكر ويقيم ويرحل، لكنه لا يعدم الحيلة التي تهديه إلى السبيل، وتمكنه من نيل المقصد. من أبرز الأمثلة التي تستدعيها الذاكرة الفرسان الاثناعشر الذين أحاطوا بالإمبراطور شارلمان، أو الملك آرثر وفرسان المائدة المستديرة، خصوصا جلاهاد الذي أفنى عمره في البحث عن الكأس المقدسة التي شرب منها السيد المسيح في العشاء الأخير.

لا يمكن أن ننسى في هذا الموضع شعر الحماسة والفروسية للجزيرة العربية وصناديدها، من عمرو بن معديكرب إلى عمرو بن كلثوم وغيرهما، كما لا يمكن أن نغفل زهير بن أبي سلمى ومعلقته الشهيرة التي صورت آلام الحروب ومآسيها.

وما الحرب إلا ما علمتم وذقـتم ... وما هو عنها بالحديث المرجم

متى ما تبعثوها، تبعثوها ذميمة ... وتضر إذا ضريتـموها فتضرم

فتعرككم عـرك الرحـى بثفـالها ... وتلقح كشافا، ثم تنتج فـتتئم

في العصور الوسطى ظلت الفروسية هي المفتاح السحري للحياة الكريمة. سعى العديد من الشباب إلى الانخراط في هذا السلك المحفوف دائما بالمخاطر والمغامرات. وفي طليعة من صور لنا هذه الفترة يأتي ألكساندر دوماس وروايته الشهيرة «الفرسان الثلاثة». وفي حرب الأعوام المائة بين فرنسا وإنجلترا وجدت الفروسية فرصة سانحة للكشف عن طبائعها. مما هو جدير بالذكر في هذا الموضع أن الشاعر الإنجليزي جيفري شوسر، صاحب «حكايات كنتربيري»، كان قد اشترك في إحدى معارك هذه الحرب وحُمل أسيرا إلى فرنسا. كما ظهرت خلال هذا الصراع جان دارك. وعلى الرغم من أن التوظيف والتوصيف الديني لرؤى جان دارك في حلبة الصراع قد انتهى بحرقها بتهمة الشعوذة فإن ذلك ترك انعكاسات ورواسب مهمة. في هذا الصدد لا يمكن أن نغفل أن الدين قد وُظف في المعارك في مواقف سابقة. خذ مثلا فرسان المعبد ١١١٨م، والداوية خلال الحروب الصليبية.



مع حلول عصر النهضة بدأ الأوروبيون في الاهتمام بالاختراعات العلمية وارتياد العالم الخارجي، شرقا مع ماركو بولو وغربا مع ماجلان وكولومبس. إلى الجنوب من البرتغال التي شغف حكامها بالاكتشافات البحرية قدم سيرفانتس نموذجا ساخرا متأخرا للبطل في العصور الوسطى: «دون كيشوت» فارس جسور، لكنه معتل بالأوهام يفني عمره في مناوشة طواحين الهواء. في عام ١٥٨٨ دمر الإنجليز الأسطول الإسباني العتيد في معركة الأرمادا. مما تجدر الإشارة اليه في هذا الموطن أن الشاعر الإنجليزي والناقد السير فيليب سيدني قد شارك في هذه الملحمة البحرية وسقط جريحا فيها، لكن نزيف دمه لم يثنه عن تقديم الماء لمقاتل إسباني يغالب الموت، كما شارك أيضا في هذه المعركة الشاعر جون دون مؤسس المدرسة الميتافيزيقية.

في عام ١٦٤٢ استُخدم البارود في الحرب الأهلية بإنجلترا، مفتتحا فصلا جديدا في تطور الوعي الأنجلو ساكسوني نحو مفهوم اللابطولة. انتهت الحرب بإعدام الملك شارلز الأول وأعدم معه قدر لا أحسبه هينا من موروث الفروسية والبطولة. أدى ظهور المدافع والبنادق إلى تلاشي الالتحام المباشر الذي طالما مكن المحارب من إظهار مآثره وفضائله في القتال. صلاح الدين مثلا برع في المبارزة وحكى الناس وتحاكوا عن إقدامه، لكنه رفض أن يقتل رينو دي شاتيو أمير حصن الكرك، حين سقط السيف من يد الأخير. ساعدت المدافع أيضا على توسيع دائرة الحرب لتقترب من المناطق الآهلة بالسكان، ليبدأ فصل دامٍ من أشكال الحروب. كما انتاب المحاربين شعور بالضآلة. لقد أصبحوا ترسا في آلة الحرب بعد أن كانوا محورها، وواجهوا موتا خسيسا يأتي إليهم في شكل رصاصة أو دانة تطلق من بُعد أميال فتأخذهم على حين غرة وتحرمهم من الذود عن أنفسهم وإخراج ما في جعبتهم من بأس.

قبل أن يلملم القرن الثامن عشر ذيول ثيابه الدامية حقق الأدميرال نلسون نصرا مؤزرا على الفرنسيين، حين تمكن من إغراق أسطولهم في خليج «أبي قير»، ووضعهم بين شقي الرحى. خلبت شخصية نلسون العقول، وافتتن به الكثيرون حتى أن الشاعر الرومانسي وليم وردزورث كتب قصيدة أسماها «المقاتل السعيد» أهداها إلى أخيه الذي قتل في إحدى المعارك، واستلهم فيها هذا الشعور المتفجر بـ «الشوفينية»



القومية التي خلفها نلسون والذي يذكرنا بدريك في العصر الإليزابيثي. على الجانب الآخر نجح نابليون في تقديم مفهوم جديد للحرب يمكن أن نطلق عليه العسكرية الميكافيلية التي تمزج بين القوة والخداع، كما حرص على إدخال التقنيات الحديثة في جيشه، غير أن المد النابليوني قد تعثر عام ١٨١٥ بعد معركة وترلو. ومما ينبغي ذكره في هذا الموطن أن ليو تولستوي قد حارب في القوقاز وكتب رائعته «الحرب والسلام» على خلفية الحروب النابليونية. مازلنا في القرن التاسع عشر الذي شهد مصرع اللورد بيرون في عام ١٨٢٤. بيرون الشاعر الرومانسي غدا أسطورة إنجليزية بعد رحيله إلى اليونان ليقاتل هناك ضد الحكم التركي. أما اللورد تينسون فقد كتب قصيدته المشهورة عن حرب القرم، وعن الجنود الذين يجابهون الموت من دون تردد أو تساؤلات عام ١٨٤٥. لاحِظ أن اللورد تينسون كتب هذه القصيدة في مروج إنجلترا، فلا هو خبر الحرب ولا اكتوى بنيرانها. من هنا بدأت تتجمع خيوط قصة أدب الحرب الدعائي الذي قد لا يخلو من زيف ووهم. في نهاية القرن التاسع عشر كتب جورج برنارد شو مسرحيته المشهورة «الرجل والسلاح» والتي تهكم فيها على مفهوم البطولة الرومانسية الزائفة، حين نجد بلانتشيلي يحمل الشيكولاتة بدلا من الذخيرة. أغضبت المسرحية العسكريين، لكنها عكست - إلى حد بعيد - واقع الحروب في مطلع القرن العشرين، حيث لم تعد تحتمل الفردية العنترية أو الاندفاع العُطيلي (نسبة إلى عطيل).

في مستهل القرن العشرين تغلبت الميكنة العسكرية الإنجليزية على الصدور العارية لمقاتلي الزولو في جنوب أفريقيا في حرب البوير ١٩٠٢، تلك الحرب التي وصمت الإنجليز بالخزي والعار على الرغم من انتصارهم فيها. كان لهذه الحرب - جنبا إلى جنب مع الحرب الأهلية الأمريكية - أبلغ الأثر في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤- ١٩١٨ أو الحرب العظمى كما يطلق عليها.

عندما أُضرمت نيران هذه الحرب كانت لاتزال بعض عوالق الرومانسية تخيم على الأجواء. رحب الكاتب توماس هاردي بمقدم هذه الحرب التي من شأنها أن تنهي كل الحروب، في حين عدها آخرون حربا صليبية مقدسة لا تستغرق سوى



بضعة شهور. كانت هذه الحرب الضروس نتاج الثورة الصناعية والحضارة المادية، وصدَّرت إلى ميادين القتال مباشرة، من قاعات الدرس بالمدارس العليا والجامعات، شبابا غضا كتب عليه أن يمتص صدمة الحرب الحديثة الشاملة. سار هؤلاء الفتية إلى الحرب في زهو يذكرنا بجيش كرومويل ١٦٤٥م، أو بجيوش الثورة الفرنسية عام ١٧٩٧م. في الحملة البحرية على مضيق الدردنيل عام ١٩١٥ لقي روبرت بروك، إحدى الأساطير الإنجليزية، مصرعه ودفن في اليونان، ورثاه ونستون تشيرشل. تغنى بروك بالبطولة والمجد والشرف والتضحية في سوناتاته التي مهدت لتطوع ٧٥٠ ألف شاب في مستهل الحرب. امتزجت الإمبريالية البريطانية في عهدها المتأخر مع النظرة الهيجلية للحرب على أنها تطهير دانتيستيكي (نسبة إلى دانتي) من الدنس، وتجديد لشباب البلاد، وتحريك للمياه الراكدة في شخصية روبرت بروك. مع انقضاء العام الأول للحرب بدأ الملل والسأم يدب في عروق الشباب، وحل النصَب والعنت تدريجيا محل الزهو والفخر، وعانى الجنود الأمرَّين من الصقيع والأوحال على الجبهة الفرنسية – البلجيكية. تفتحت عيون الجنود على الواقع المرير للحرب، وتلاشت أبخرة الرومانسية عندما حمي الوطيس. وأمست الشعارات جوفاء خالية من أي معنى. أحس الجنود أنهم وقعوا ضحية خيانة الوطن، وأنهم قد غُرر بهم وغُمَّت أعينهم. مع نشوب معركة السوم ١٩١٦م ومقتل ٦٠ ألف جندي في يومها الأول، ودخول الدبابات ساحة القتال لتسحق عظام الجنود، تحول المد نهائيا وبلا رجعة إلى الواقعية البرجماتية. احتج الجنود على الحرب التي تفتقر إلى التبرير الأخلاقي والأسباب العادلة، ولا تميز بين البشر والشجر ولا الأطفال والشيوخ. تزعم الشاعر المحارب سيجفريد ساسون الاحتجاج، وانبرى يهاجم في قصائده – بلا هوادة – الساسة ورجال الدين والجنرالات. عكس الأدب النظرة الجديدة إلى الحرب بكل صدق. هذا الأدب قد برأ من الخيال والأوهام، لكنه لا يدعو البتة إلى الاستكانة والانهزامية. لقد صور أدب الخنادق للحرب العظمى «نفوق» الجنود كالأغنام وسحقهم كالحشرات الهائمة بعد تعرضهم لغاز الخردل. بعضهم راح يشكك في وجود رحمة بين البشر بعد أن لقي تسعة ملايين شاب مصرعهم في الأتون المستعر للحرب. أدرك الجنود أن هذا العصر جد مختلف، وأنهم لم يستعدوا لقبول



معطياته الجديدة. لم يكن عصر سيف آرثر أو يمامة عمرو بن العاص (الشجاعة والرحمة)، بل عصر المحارق والمذابح وتشريد الأبرياء الذين ليس لهم ناقة ولا جمل في هذا الصراع. أفضل من جسَّد الروح الجديدة هو الشاعر ولفريد أوين الذي خرج من مدرسة بروك، ثم اكتشف الحقيقة على يد ساسون. ولا عجب فقد وجد أوين نفسه ذات مرة، بعد إصابته، طريح الفراش في مستشفى ميداني بجوار ساسون نفسه. كان بإمكان ولفرد أوين العودة إلى إنجلترا بسبب هذا الجرح الذي تمناه كثيرون، لكنه عاد إلى الجبهة ليكتب عن الشفقة المفقودة، ويرثي رفقاء السلاح في قصائد تعد من أفضل ما كتب عن الحرب الحديثة.

إحدى أهم قصائده هي «إنه لأمر مشرف أن تموت من أجل الوطن». عنوان القصيدة مقتبس من الشاعر الروماني هوراس، وهو مكتوب باللاتينية. وفيما يلي ترجمة حذرة قمت بها لهذا النص الفارق في تاريخ أدب الحرب. فقط قارن بين المقاتل في العصور الغابرة بدروعه اللامعة ومنظره الأخاذ، وهذا المقاتل الذي قدمه لنا أوين في قصيدته، لتكتشف على الفور اختلاف المفاهيم وتغيرها.

Dulce Et Decorum Est

Bent double, like old beggars under sacks.

Knock-kneed, coughing like hags, we cursed through sludge.

Till on the haunting flares we turned our backs.

And towards our distant rest began to trudge.

Men marched asleep. Many had lost their boots.

But limped on, blood-shod. All went lame, all blind.

Drunk with fatigue; deaf even to the hoots.

Of tired, outstripped Five-Nines that dropped behind.

Gas! Gas! Quick, boys! - An ecstasy of fumbling.

Fitting the clumsy helmets just in time.

But someone still was yelling out and stumbling.



And floundring like a man in fire or lime...

Dim through the misty panes and thick green light.

As under a green sea. I saw him drowning.

In all my dreams before my helpless sight.

He plunges at me. guttering. choking. drowning.

If in some smothering dreams. you too could pace.

Behind the wagon that we flung him in.

And watch the white eyes writhing in his face.

His hanging face. like a devil's sick of sin.

If you could hear. at every jolt. the blood.

Come gargling from the froth-corrupted lungs.

Obscene as cancer. bitter as the cud.

Of vile. incurable sores on innocent tongues.

My friend. you would not tell with such high zest.

To children ardent for some desperate glory.

The old Lie: Dulce et decorum est.

Pro patria mori.

رحنا نخوض في الأوحال ونسب ونلعن، تتخبط ركبنا ونسعل كالعجائز

وتقوست نحورنا تحت المخل ومضينا كالمتسولين

وولينا ظهورنا للطلقات الكاشفة التي انطبعت في عقولنا

وأخذنا في المسير نحو المبيت النائي وحل بنا التعب

وأعيا الجنودَ النصَبُ وأنهكهم العنت، فتمايلوا كالشخص الثمل

واستسلموا للنوم وهم سائرون، وفقد الكثيرون أحذيتهم فانتعلت أقدامهم الدماء

ومع العرج وزيغ البصر صُمَّت آذانهم

عن نعيب الدانات المتصل، تلك التي راحت تسقط خلفهم.



غاز! غاز! هلموا يارجال – كل يتعثر ويتخبط
ويرتدي القناع الأخرق في آخر ثانية
بيد أن هناك شخصا يصرخ وينتفض
كمن يحرق بالنار أو على الكلس وضع
رأيته من خلال عدسة القناع الباهتة يختنق
ولونه الأخضر القاتم بلون قاع البحر
وفي أحلامي أراه وأسمع حشرجته
يزبد ويرغي فلا أملك له عونا.
لو ألفيت نفسك تسير في أحلامك الغائمة
خلف الكارة التي طرحناه عليها
وتشاهد بياض عينيه الزائغتين
ووجهه المتدلي كآثم أعيته الرذيلة
وإذا سمعت مع كل رجة
غرغرة الدم في الرئة التالفة
كريهة كالسرطان مريرة كمضغ واجترار الأسى
بالأفواه المتقرحة وسقم الألسنة البريئة
فلن تأخذك الحمية يا صديقي وتردد على مسامع
الأطفال المتشوقين لحكايا المجد البائس
الأكذوبة الكبيرة
«إنه لأمر مشرف أن تموت من أجل الوطن»

مثل هذا الجندي المسكين لقي «أوين» حتفه عام ١٩١٨ قبل نهاية الحرب بأسبوع. ومن مفارقات القدر أنه في الوقت الذي قرعت فيه أجراس الكنائس ترحيبا بالهدنة والسلام كان مندوب وزارة الحرب البريطانية يقرع باب بيت «ولفريد أوين»، ليقدم إلى أمه برقية تعزية في فلذة كبدها. يذكرنا «ولفريد أوين» بشخصية «بول» في رواية «إريك ماريا ريمارك» الخالدة « كل شيء هادئ على الجبهة الغربية». حيث يقتل بول في نهاية عام ١٩١٨بعد معاناة استمرت أربع سنوات في الجبهة.

شهدت الفترة ما بين الحربين العالميتين ظهور روايات شامخة في أدب الحرب، منها رواية «وداعا للسلاح» لإرنست هيمنغواي، ورواية «طريق المجد» لمؤلفها همفري كب التي تدور أحداثها عام ١٩١٥م، عندما أبت كتيبة مشاة تسلق واعتلاء تلة خطرة تقع في المرمى المؤثر لنيران العدو، فحوكمت الكتيبة بالكامل محاكمة عسكرية، واختير جندي من كل سرية ليعدم رميا بالرصاص، وكانت عملية الاختيار عشوائية، وجرت عن طريق كتابة الأسماء ووضعها في خوذة أحد الجنود ثم سحب منها ورقة.

نشبت الحرب الأهلية الإسبانية عام ١٩٣٦، وقد أنهت هذه الحرب مفهوم البطل الإسبارطي، وكانت لها تداعيات خطيرة على ملايين الأبرياء من المدنيين الذين ليست لهم ناقة ولاجمل في الصراع، لكنهم يكتوون بنار الحرب وألغامها. كتب إرنست هيمنغواي روايته «لمن تقرع الأجراس» على خلفية هذه الحرب، كما ترك لنا أيضا قصة قصيرة عميقة الأثر والمغزى تحت عنوان «عجوز عند الجسر» Old Man at the Bridge.

أتت الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ بقوة تدميرية هائلة تمثلت في استخدام السلاح النووي. ومن أبرز الأصوات الأدبية التي ظهرت خلال هذه الحرب شعراء الجيش الثامن البريطاني الذين حاربوا تحت إمرة الجنرال «مونتغومري» في العلمين، وبرز من بينهم الشاعر كيث دوجلاس الذي كتب في وادي النطرون قصائد رائعة عن ميلينا تلك الفتاة ذات الأصول الأوروبية التي التقاها في الإسكندرية. انتهت قصة حب كيث لميلينا بالفشل وأعيد تمركزه في أوروبا ليسقط صريعا في أثناء الإنزال الكبير في نورماندي عام ١٩٤٤، ويبقى نموذجا صارخا لعبثية الحرب والموت في ريعان الشباب.

تكرر هذا السيناريو القاتم خلال الحرب الكورية وحربي فيتنام وفوكلاند وحروب الخليج، وما يدور في جميع أرجاء المعمورة الآن من أشكال للصراع الذي أخذ شكلا جديدا يسميه العسكريون «حرب المدن» التي تأتي على الأخضر واليابس، وتفتك بالمدنيين، من دون رحمة أو هوادة. كان أبرز من كتب عن معاناة المدنيين خلال

الحروب الحديثة فاني كمبل جونسون في قصتها القصيرة «رجل غريب الشكل The Strange-Looking Man».

هناك خيط رفيع بين الحركة المناوئة للحرب من ناحية، والجهاد والمقاومة من ناحية آخرى. كثير من الناس لا يرون هذا الخيط فيتهمون أدب الحرب المناوئ بالانهزامية، وهذا غير صحيح. إن السلام هو غاية البشرية، وهو أمر دعت إليه الأديان قاطبة، لكن استعادة الحق المسلوب هدف نبيل وواجب شرعي. إنما يهاجم أدب الحرب في عهوده المتأخرة الحروب التي لا تستند إلى حق وعدل. حروب يشنها الساسة ويدفع ثمنها البسطاء، كما يناهض هذا الأدب «العنتريات التي ما قتلت ذبابة»، مشددا على ضرورة تجييش الجيوش وإعداد العدة وتكافؤ القوى. هذا الأدب بريء من دعاوى الجبن والتخندق وتدجين الشعوب. من أجل ذلك أسوق إلى القارئ الكريم قصة قصيرة تدور أحداثها في فرنسا خلال الاحتلال النازي، ليرى كيف تصور المقاومة في أبسط صورها من خلال معلم للغة الفرنسية يضطر إلى الرحيل فيوصي تلاميذه بأن يتمسكوا بلغتهم وهويتهم، فالاحتلال لا يدوم.

بقي لي أن أشير إلى أنني ترجمت القصة، وعنوانها «الدرس الأخير The Last Lesson» للكاتب ألفونس دوديت، عن النص الإنجليزي:

تأخرت كثيرا عن الذهاب إلى المدرسة ذاك الصباح، وخشيت من التوبيخ، خاصة أن السيد هاميل كان قد أخبرنا نيته اختبارنا في تصريفات الأفعال، التي افتقرت إلى معرفة أقل القليل عنها. خطرت بعقلي، لحظات، فكرة تجنب الذهاب إلى المدرسة وتمضية اليوم هائما بين الحقول. لقد كان يوما جميلا دافئا، وترامت إلى مسامعي من أطراف الغابة أصوات طيور الشحرور وصيحات البروسيين في تدريباتهم التي تجري خلف بناية منشار قطع الأخشاب بحقل «ريبرت». أغراني كل هذا بالعدول عما يتعلق بتصريفات الأفعال من قواعد، لكنني قاومت وانطلقت نحو المدرسة. وبينما كنت أمر بمنزل العمدة شاهدت حشدا من الناس قد تجمعوا حول لوحة الإعلانات الصغيرة التي شهدت حولين متتاليين كل أخبارنا السيئة من هزائم وتجنيد إجباري وأوامر صادرة عن القيادة... وهلم جرا.



«يا ترى ما الأمر الآن؟»

تابعت العدو عبر الميدان، ووصلت إلى أذني كلمات «وتشر» الحداد الذي وقف هناك مع صبيه ليطلع على الإعلان:

«تمهل يا بني، سوف تلحق بمدرستك»

ظننت أنه يسخر مني، وانطلقت عبر فناء السيد هاميل الصغير وقد تقطعت أنفاسي. عادة ما تصخب المدرسة في بداية اليوم الدراسي ويصل ضجيجها إلى الشارع من فتح وإغلاق للمكاتب الدراسية وترديد جماعي للدروس ملء السمع بغية التعلم بسرعة ونقر مسطرة المدرس الصلبة على الطاولة قائلا:

«اخفضوا عقيرتكم قليلا!»

لطالما اعتمدت على هذه القرقعة في التسلل إلى مقعدي خلسة وخفية، بيد أن الهدوء قد لف المكان فبدا كأنه في صبيحة يوم الأحد. رأيت عبر النافذة المفتوحة زملائي، كل في مكانه، والسيد هاميل يذرع الفصل ذهابا وجيئة، وقد تأبط المسطرة الحديد. لم يكن أمامي بد من فتح الباب والدخول في هذا الجو الذي سيطر عليه الصمت المطبق، وسأترك لك تخيل الموقف وما انتابني من خوف واحمرار وجهي خجلا! لكن شيئا من هذا لم يحدث! نظر إليَّ السيد هاميل الذي لم تبد عليه أي من علامات الغضب ثم قال برفق:

«اذهب إلى مقعدك على الفور يا صغيري فرانتس. لقد كدنا نبدأ من دونك».

خطوت نحو المقعد وجلست في الحال. وعندما زالت عني جزئيا رهبة الموقف لاحظت أن مدرسنا يرتدي معطفه الأزرق الأنيق وطوق الرقبة المجدول والسروال الأسود المطرز، هذا الزي الذي يرتديه في أيام التفتيش، وعند توزيع الجوائز. بالإضافة إلى ذلك، عم الفصل برمته شيء غير عادي وإحساس مهيب كئيب، على أن أشد ما أثار دهشتي هو رؤية بعض سكان القرية وقد شغلوا، في صمت، المقاعد الواقعة في نهاية الفصل، والتي عادة ما تكون خالية. كان من بينهم «هوسر» العجوز بقبعته المثلثة، والعمدة وساعي البريد السابقان، وآخرون بدا عليهم جميعا الحزن.



جلب هوسر ذو النظارة الكبيرة، التي انحرفت عن موضعها من وجهه، كتاب هجاء عتيقا تآكلت حوافه، ووضعه مفتوحا على ركبته. وبينما اعترتني الدهشة من جراء هذا كله استقبل السيد هاميل منصة الشرح مخاطبا الفصل بنفس الصوت الجاد الرقيق الذي استقبلني به:

«يا أطفالي. هذا آخر عهدي بالتدريس لكم. لقد وصلت أوامر من برلين بتدريس الألمانية فقط في مدارس مقاطعتي الألزاس واللورين. سيصل المدرس الجديد غدا. والآن أرجو منكم الانتباه إلى آخر درس باللغة الفرنسية».

اجتاحتني هذه الكلمات القليلة. آه! يا للأوغاد! هذا إذن ما وضعوه على لوحة الإعلانات. آخر درس باللغة الفرنسية، ومازلت لا أعرف سوى أقل القليل عن الكتابة! قضي الأمر ولن أتقدم قيد أنملة. شعرت بالحنق على نفسي لأني ضيعت الوقت والدروس سدى، وآثرت مطاردة أعشاش الطيور والتزحلق فوق مياه نهر «الصار». فجأة تحول كتاب النحو والتاريخ المبجل وكتب أخرى – خلتها ثقيلة ومرهقة منذ لحظات – إلى أصدقاء قدامى يُدمي قلبي فراقها، وكذا السيد هاميل الذي سرعان ما نسيت ضربات مسطرته وعقابه لمجرد الإحساس بأنه راحل، وأنه لن يُكتب لي أن أراه ثانية. يا للرجل المسكين! ألهذا السبب ارتدى ملابس يوم الأحد الجميلة تعظيما وتشريفا للدرس الأخير؟ أدركت الآن سبب حضور الرفقاء الكبار من القرية وجلوسهم بمؤخرة الفصل في إشارة، على ما يبدو، إلى الندم على مجافاة المدرسة. عبر وجودهم عن شكر واجب لمعلمنا ولخدماته المخلصة على مدار أربعين عاما وتبجيل الوطن الآخذ في التلاشي والضياع. كنت غارقا في تأملاتي عندما تردد اسمي... لقد حل دوري للتسميع. وددت لو تنازلت عن أي شيء مقابل أن تنحل عقدة لساني فأنطلق، من دون هفوة أو كبوة، ساردا – بصوت واضح أجش – القواعد المنصوصة لتصريفات الأفعال من بدايتها إلى نهايتها، لكني وقعت في الغلط والخلط ووقفت هناك مقابل المقعد واجف النفس، خافق القلب، خافض الرأس، ثم جاءتني كلمات السيد هاميل:

«تستحق عقابا مناسبا، لكني لن أوبخك يا صغيري فرانتس، ها هي ذي حالنا. نحدث أنفسنا كل يوم بأنه مازالت هناك فسحة من الوقت ونرجئ التعلم للغد، ثم يحدث ما ليس في الحسبان كما رأيت. آه، لقد كان من حظ الألزاس العثر أن أرجأت دروسها للغد... تزعم أنك فرنسي وتعجز عن التحدث والكتابة بتلك اللغة! لكنك لست المذنب الوحيد أيها المسكين فرانتس، فلكل منا نصيبه من التوبيخ. والداك لم يهتما بمتابعة تعليمك على نحو كاف، وآثرا إرسالك للعمل في الحقول والمصانع، ليحصلا على بعض النقود الإضافية... حتى أنا أستحق اللوم، ألم أطلب منكم ري الحديقة، وكان الأحرى أن تقضوا هذا الوقت في المذاكرة؟ وعندما أردت الذهاب لصيد السلمون المرقط هل ترددت في صرف الفصل؟».

ظل السيد هاميل ينتقل من موضوع إلى آخر، وعرج في حديثه على اللغة الفرنسية، فقال عنها إنها أجمل لغات العالم وأوضحها وأثراها، وإنه يجب علينا أن نحافظ عليها وألا ننساها، لأنه عندما يسقط شعب تحت نير العبودية «يبقى مفتاح السجن هو التشبث بلغته». عقب ذلك تناول السيد هاميل كتاب النحو شارحا الدرس المقرر... وتملكني العجب مما ألفيت نفسي عليه من قدرة واستعداد لفهم وقبول كل ما تفوه وتلفظ به. وجدت الأمر سهلا هينا، وأحسب أنني لم أنتبه وأنصت على هذا النحو الكثيب اللصيق قط، وأن مدرسنا لم يكن قط حليما رفيقا في شروحاته قدر اليوم، كأن هذا الرجل المسكين أراد أن يمنحنا كل ما في جعبته من علم دفعة واحدة، وأن يطبعه في عقولنا قبل أن يغادر. بعد انتهاء درس القواعد النحوية انتقلنا إلى الكتابة التي أعد لها السيد هاميل أمثلة جديدة تماما وضعها خصيصا لذاك اليوم... كتب بخط أنيق مزين «فرنسا، الألزاس – فرنسا، الألزاس» فكأن هذه الكلمات بيارق صغيرة تتدلى من سارية مكاتبنا لترفرف في الفصل. آه لو تخيلت الصمت الذي لف المكان فلا تكاد تسمع سوى صرير الأقلام على الورق! وكيف انكببنا على الدرس فلم نعر حتى بعض الحشرات الطائرة انتباها! وكيف جاهدنا لكتابة الفرنسية والمحافظة على السطر بكل ما أوتينا من وازع حي وعزم ماض! ترامى إلى سمعي من فوق سطح بناية المدرسة هديل الحمام بصوت خفيض فتساءلت في نفسي:



«هل سيجبرون الحمام أيضا على الغناء بالألمانية؟».

بين الفينة والأخرى رفعت رأسي الذي دفعته في الورق، لأجد السيد هاميل جالسا على مقعده لا يحرك ساكنا، ومحملقا في الأشياء الموجودة حوله، كأنه يتمنى أن يحمل في مقلتيه المدرسة الصغيرة برمتها. تخيل نفسك مكانه! لمدة أربعين سنة ظل الرجل في هذا المكان، فهاهو الفناء المترامي أمامه بأشجار الجوز النامية ونباتات أخرى زرعها بنفسه أخذت في التسلق نحو النوافذ والسقف. هاهو الفصل الذي لم يطرأ عليه تغيير، اللهم إلا تلاشي طلاء المقاعد والمكاتب نتيجة للاستخدام. يا للرجل المسكين الذي انفطر قلبه حزنا وكمدا لفقد هذه الأشياء وسماعه وقع أقدام أخته تذرع الحجرة العلوية ذهابا وجيئة لحزم الحقائب. فقد تحتم عليهم مغادرة المقاطعة اليوم التالي من دون رجعة! فجأة دوى جرس الكنيسة معلنا انتصاف النهار وتزامن معه انطلاق أبواق البروسيين ووقع خطواتهم تحت نوافذنا بعد انتهاء تدريباتهم. نهض السيد هاميل واقفا وقد شحب وجهه، وبدا لي فارع الطول على نحو لم ألحظه من قبل.

«أصدقائي»، هكذا قال: «أصدقائي....أنا....أنا»، خنقته العبرة وتحشرجت الكلمات، فلم يكمل جملته وأدار وجهه إلى السبورة. تناول قطعة من الطباشير وتحامل على نفسه مستجمعا كامل قواه ليكتب بأحرف كبيرة «تحيا فرنسا». وقف هناك من دون حراك، وقد أمال رأسه إلى الحائط، ثم أشار إلينا بيده قائلا:

«هذا كل ما في الأمر. يمكنكم الانصراف».

***

تنتمي المسرحيتان التاليتان إلى أدب الحرب. وكما سبق أن أشرنا بدأ المسرح في تناول تجربة الحرب في مرحلة مبكرة باليونان. وفي العصر الإليزابيثي نجح كريستوفر مارلو في مسرحيته «إدوارد الثاني» ووليم شكسبير في «ماكبث» في تصوير الحرب على المسرح، واستخدام التقنيات المناسبة في اختزال ساحة القتال الشاسعة في بضعة أمتار. كان شكسبير موفقا في مزج الفروسية بالمأساة، وليس



أوقع من نداء بطله ريتشارد الثالث حين يصيح: «مملكتي مقابل جواد» في المسرحية التي تحمل اسمه لتدلل على ذلك. في العصر الحديث، ومع تطور تقنيات الإخراج وتمثيل جو المعركة، دخل المسرح طورا جديدا وتخلص من سجعه وقافيته وقدم لنا نصوصا واقعية لأدب الحرب.

نعود إلى المسرحيتين اللتين نحن بصددهما من الأدب الأنجلو - أمريكي. تدور أحداث المسرحية الأولى (أمهات الجنود) خلال الحرب العالمية الأولى من خلال سيدتين لديهما ابنان في الجبهة يشتركان في الاسم نفسه. تصل إحداهما برقية بمصرع ابنها فتحاول معرفة الحقيقة، ويحدوها الأمل في أن يكون القتيل هو الشخص الآخر. وهكذا تتطور المسرحية في حراك دراماتيكي رائع، ليكشف عن خبايا النفس البشرية ونوازعها. وحد الموت الشابين، كما وحد الألم والحزن بين السيدتين على الرغم من تباين الطبقة الاجتماعية لكلتيهما، وجميل أن تجد الغني والفقير في خندق واحد، لأنه قد استقر في وعي البعض أن الفقير هو من يدفع الثمن من بؤسه وشقائه في فترات السلام، وهو أيضا من يُزج به للتجنيد الإلزامي والسخرة في الحروب، بينما يفلت الغني بماله ونفوذه، بل ويثري من الحروب، والمتاجرة بأقوات الشعوب. المؤلم في هذه المسرحية هو الزيف السياسي الدعائي لكيتشنر والذي أوقع الجنديين، في حبائل الحرب. اقرأ معي هذه الكلمات للسيدة شيبستو، والدة أحد الجنديين لتدرك إلى أي حد نجحت أبواق الدعاية في تهييج مشاعر الشباب والضرب على وتر البطولة والتضحية والفداء:

لم يتطوع في الأيام الأولى للحرب، فهو وحيدي كما ترين، ولم أكن متحمسة لذهابه، ولأن كلينا فقط يعيش هنا فقد غلب عليَّ الظن أنه تقع على عواتق الأمهات اللاتي لديهن أكثر من ولد مسؤولية إرسال بعض من فلذات أكبادهن إلى الحرب. ليس لدي غير توم. تناقشنا في الأمر. كان راغبا في التطوع. أخبرني أن إنجلترا تحتاج إلى كل من يمكنه حمل السلاح. نظر إليَّ وجال ببصره بين جنبات بيتنا الصغير الدافئ. أظنه قرأ تعابير وجهي ونظرات عيني ساعتها، إذ قرر أن ينزل على إرادتي ويرجئ الأمر بعض الوقت. عاد في مساء يوم إلى البيت ليخبرني أن أصدقاءه



انخرطوا في سلك العسكرية، وأن ديكي فيتزجيرالد قد رقى إلى درجة عريف، وكيف أن رفيقه ضخم الجثة ويل تيبر الذي أوسعه توم ضربا في المدرسة، والذي اعتقد كثيرون أنه لن يرقى إلى شيء ذي أهمية قد حصل على وسام صليب الملكة فيكتوريا! ثم راح يمسك بالصحيفة ويخبرني أن كيتشنر في عوز إلى المزيد من الرجال. كنت أعرف أن هذا اليوم لا محالة آت، لكني تمالكت نفسي قائلة: «نعم يا توم. لقد ورثنا ماضيا تليدا من الجندية». تدرين.. حارب جده في شبه جزيرة القرم، وتجري في عروقه هذه الدماء التي لم أفلح بمفردي في تهدئة فورتها. لزمت الصمت وتوجهت إلى خزانة الملابس لأتأكد من أن لديه سراويل داخلية وجوارب تقيه برد الشتاء. وانتظرت لحظة رحيله كل يوم مع حلول المساء. في صبيحة يوم من أيام الآحاد فرغ توم من إفطاره وأزاح الصحن جانبا، ثم من دون أن ينبس ببنت شفة نظر إليَّ نظرة أدركت معناها، ورأيتها مرارا وتكرارا في أحلامي، لتوقظني فزعة مرتعشة متمنية أن يكون الأمر مجرد كابوس، لكني قلت: «أجل يا توم».

أما مسرحية «رادا» فغنية بالإسقاطات والرموز والأفكار والمشاعر على الرغم من صغر حجم النص نسبيا. كتب ألفريد نويز هذه المسرحية في عام ١٩١٣ فكانت بحق إرهاصا لما سوف يحدث بعد عام حين اندلعت الحرب العظمى الأولى. اختار نويز البلقان مسرحا لهذه الحرب التي لا يسميها ولا يكشف عن هويتها، فجاء اختياره موفقا أيما توفيق، فالبلقان كان مسرحا للعديد من الحروب عبر التاريخ، وهو توليفة غريبة من العرقيات والموروثات تجعله بركانا نشطا يلفظ حمم الصراع والنزاع. كان البلقان موضعا مهما من المواضع التي اصطدم فيها الشرق بالغرب، فكتب عليه ألا يهنأ بصلح دائم أو سلام متين. في البلقان وتحديدا في يوغوسلافيا السابقة اغتيل ولي عهد الإمبراطورية النمساوية – المجرية، لتكون هذه هي الشرارة لاندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤. مسرحية «رادا» نص فلسفي يعرض فيه نويز النظرية الداروينية للاصطفاء الطبيعي والبقاء للأصلح، ويصور الغريزة الحيوانية للجنود وكيف أن الموت المحدق بهم يجعلهم يأكلون بنهم ويشربون بإفراط ويعاشرون النساء



ويقتلون بلا رحمة. في ظني أن إريش ماريا ريمارك قد استفاد كثيرا من هذا النص عندما صور لنا هذه الحيوانية Animalism في روايته الخالدة «كل شيء هادئ على الجبهة الغربية»، لكن المثير عند نويز هو الإسقاطات والرموز الدينية التي استخدمها، كالدماء والخمر ومفهوم ذلك في الديانة المسيحية من فكرة الخلاص والفداء.

كلتا المسرحيتين عرضت بشاعة الحرب بنظرة واقعية تنأى عن تمجيدها أو تقديسها، خصوصا إذا افتقرت إلى الأسباب العادلة أو المقاومة المشروعة. وعلى الرغم من أنه لم ينشر عنهما الكثير نجحت المسرحيتان، إلى حد كبير، في تصوير مآسي الحرب وأثرها ليس فقط على الجنود الذين يخوضون غمارها، بل أيضا على المدنيين الذين يكتوون بنارها، وأحسب أن أي مؤرخ منصف لأدب الحرب، أو مسرح الحرب بشكل أكثر خصوصية ودقة، سوف يتوقف عند هذين العملين فيفرد لهما ما يستحقانه.

من أجل ذلك انتقيت النصين، وسعيت إلى تقديمهما إلى القارئ العربي المهتم بالمسرح العالمي، في محاولة لعرض هذه التجربة الإنسانية، وحين يستوعبها تصبح نظرته إلى الحياة ومجرياتها أكثر واقعية وحكمة. ففي الوقت الذي يوظف فيه الغرب أدب الحرب أفضل توظيف لخدمة مصالحه الاستراتيجية مازلنا في العالم العربي مشغولين بإشكالية تعريف المصطلح. هل نسميه أدب الحرب أو أدب المقاومة أو أدب المعركة أو أدب التحرير أو أدب الجندية أو أدب الجبهة؟

ما نحتاج إليه في العالم العربي اليوم هو مركز قومي مؤسسي لأدب الحرب يعنى بجمع رسائل الجنود ومذكراتهم، تماما كما يفعلون في إنجلترا والولايات المتحدة، ويعطي محاضرات تثقيفية لشباب الجامعات الذين لا يعرفون حقيقة الحرب، والذين لا تستهويهم القراءة عن هذا الموضوع. إن توعية وتثقيف هؤلاء الشباب، في ظني، واجب قومي.

وحقيقة، لا أجد ما أختم به هذه المقدمة، وأستهل به الترجمة، سوى هذه الأبيات التي سطرها جون كرومر، أحد شعراء الحرب العالمية الثانية:



Against the thought of war

Against the talk of war

Against war

ضد التفكير في الحرب

ضد الحديث عن الحرب

ضد الحرب

د. محمد عزب

❊ ❊ ❊



مراجع «المقدمة»

Bates, Scott (ed.)	Poems of War Resistance: From 2300 B.C. to the Present, Crossman Publishers, Cairo, 1969.
Blunden, Edmund (ed.)	The Poems of Wilfred Owen, Chatto and Windus, 1965.
Blunden, Edmund (ed.)	Undertones of War, Penguin, 1984.
Blunden, Edmund (ed.)	War Poets: 1914-1918, Longman, 1958.
Bulfinch, Thomas.	The Age of Chivalry, Mentor, New York, 1962.
Butherland, Andrew.	The Literature of War, Macmillian, 1979.
Cambell, Joseph.	The Hero With A Thousand Faces, Bollingen, New Jersey, 1973.
Clausewitz, Carl Von.	On War, trans. By Michael Howard, New Princeton Univ. Press, 1984.
Crawford, Robert John.	I Was An Eighth Army Soldier, Victor Gollancz, 1944.
Curry, R.N.	Poets of the 1939-1945 War, Longman, 1960.
Denholm-Young, C.P.S.	Men of Alamein, R.Shindler, Cairo, 1943.
Devanter, Lydna Van.	Visions of War, Dreams of Peace, Warner, New York, 1991.
Douglas, Keith.	From Alamein To Zem Zem, ed. Lawrence Durrell, Faber, 1966.
Drinkwater, John.	Patriotism in Literature, Williams and Wargate, 1924.
El Sadda, Hoda.	English Poets in Egypt, 1939-1945, a Ph.D thesis, Facutly of Arts, Cairo, 1988.
Enright, D.J.	The Literature of the First World War' The New Pelican Guide to English Literature, Vol.7, 1988.
Foss, Michael.	Chivalry, David McKay, New York, 1976.
Fraser, G.S.	'Keith Douglas: A Poet of the Second World War', Chatterton Lecture on an English Poet, Proceedings of the British Acadmey, Vol. XIII, 1956.
Fussell, Paul.	The Norton Book of Modern War, Norton, New York, 1991.



Gadalla, Mamdouh Aziz.	Pro et Contra, First World War Poets, A Study in the Evolution of Imagery, a Ph.D.thesis, Beni Sweif Faculty of Arts, Cairo Univ.. 1996.
Graham, Desmond.	Keith Douglas: 1920-1944, A biography, Oxford Univ. Press, 1974.
Graham, Desmond.	The Truth of War, Carcanet Press, 1984.
Hart, Liddle.	Thoughts On War, Faber and Faber, 1943.
Higgins, Ian (ed.)	The Second World War In Literature, Scotlish Academic Press, Edinburgh, 1986.
Lehmann, John.	Rupert Brooke, His Life and Legend, Weidenfeld Nicolson, 1980.
Lohrke, Eygene.	Armageddon: The World War in Literature, Jonathan Cape, 1930.
Montgomery, Bernard	A History of Warfare, Collins, 1968.
Rifaie, M.	The Personal Landscape Group, Ph.D. thesis, Univ. of Wales, 1980.
Rifaie, M.	The Poetry of Keith Douglas: An Approach, Dar Al Wafaa, Mansoura, 1986.
Sassoon, Siegfried.	Siegfried's Journey, Faber, 1945
Schofield, W.H.	Chivalry in English Literature, Merrymount Pres, Boston, 1912.
Stacery, Robert C.	'The Age of Chivalry', The Laws of War, ed. Michale Howard, Yale Univ. Press, 1994.
Wisniewsk, Jacek.	Mars And The Muse: Attitudes To War And Peace in 20th century English Literature, Wydawnictwa Univ. Press, Warso, 1989.



أمهات الرجال

تأليف

بيرسيفال وايلد

العنوان الأصلي للمسرحية

MOTHERS OF MEN

by: Percival Wilde



حجرة استقبال تتميز بالرونق والفخامة، أثاثها فاخر وفرشها أنيق ولوحاتها الزيتية لا تقدر بثمن، وسجادها سميك تغوص فيه الأقدام، وباختصار كل ما فيها جميل ونفيس وينم عن ذوق رفيع. ولك أن تتخيل أيها القارئ العزيز الصورة المغايرة لتعرف ما نحن بصدد وصفه، فلا يصدم عينيك هنا أي شيء رث، ولا تشوب نظافة المكان ذرة من الغبار، ولا غرو فلطالما افتخرت السيدة شيبستو بحسن ترتيب وتدبير منزلها، وأحست بالازدراء الشديد في حال تعرض أي جزء منه للانتقاد. وعلى الرغم من ذلك يحتفظ الأثاث بتأثير عجيب يجمع بين الراحة والأناقة في توافق وانسجام. اهتم السيد شيبستو بكل ما هو قديم، لكن أرملته جاهدت لتضفي شيئا من الحداثة، فجاءت النتيجة - كما ترى - غريبة الأطوار، وربما زادت غرابتها لو أتيحت لهذه العائلة أموال أوفر. ترى الحجرة وقد اكتظت بالعديد من قطع الأثاث غير المثبت ذات التصميم المتواضع والصنعة الرخيصة، ولولا اهتمام رب المنزل وعنايته لتداعت هذه القطع منذ أمد بعيد، ولولا هذه الصيانة المتواصلة لما احتفظت هذه القطع بقدر من أصالتها وعتاقتها وتحملها وأناقة العصر الفيكتوري الذي تنتمي إليه. «لا يضاهي مكان على وجه البسيطة دار المرء»، هكذا تغنى الشاعر، ويمكننا الجزم بصدق هذه الكلمات وسلامة الاعتقاد بصحتها حتى للآلاف ممن هم على شاكلة مايدا فَيل الذين يمتلكون وحدة سكنية مكونة من غرفتين. كم تفتخر مايدا أو السيدة شيبستو بشقتها التي يمكن أن تميزها عن أترابها من أول وهلة، وكم تبتهج وتستمتع بها. وتبلغ السيدة شيبستو التي تبدو في صورة جيدة نيفا وخمسين سنة، وتنتمي هذه الأرملة إلى الطبقة الوسطى كما تعكس ملامحها، فلطالما اعتبر السيد شيبستو نفسه جزءا من العمود الفقري للأمة البريطانية، ودأب على ترديد ذلك مرارا وتكرارا وهو جالس في محل تجارة الحديد الذي يمتلكه بشارع لودغَيت هِل. وعاشت الأرملة على سمعة زوجها، وهاهي جالسة في مقعدها المريح تحيك بالإبرة في ظهيرة يوم منعش من أيام شهر أكتوبر، وقد أطلقت العنان لأفكارها لتجول في أروقة الماضي بين زهو وضجر ومد وجزر وارتفاع وانخفاض، ثم تفيق على وخز الحاضر وغصته، فلديها - شأنها في ذلك شأن مئات الآلاف من الأمهات في بريطانيا - ابن يحارب في مكان ما في فرنسا، وتتوق نفسها إلى رؤيته حتى لو بذلت في سبيل ذلك الغالي والرخيص. ينطلق جرس الباب فتطوي السيدة شيبستو ما بيدها بعناية، ثم تنهض وتغادر الحجرة. نسمع صوت فتح الباب وهمهمة أصوات تصبح أكثر وضوحا كلما اقتربت من الحجرة.

السيدة شيبستو : تفضلي هنا.

(تفتح الباب الذي يفضي إلى حجرة المعيشة. تدخل امرأة في نفس السن، لكن أفضل في وضعها الاجتماعي، إذ يمكن تخمين هذا من ملابسها الأنيقة)

نعم. ماذا يمكنني أن أفعل من أجلك؟

(تبدو الزائرة في حالة من الإثارة والارتباك، بل والخوف الذي سبب لها رعشة منعتها عن الكلام بشكل رصين. تتبين السيدة شيبستو ذلك)

هلا تفضلتِ بالجلوس؟

(تقدم لها مقعدا)

الزائرة : (تجلس متنفسةً الصُّعداء) شكرا لك.

السيدة شيبستو : كوبًا من الشاي؟

الزائرة : لا. لا.

(السيدة شيبستو متجهة صوب طاولة الشاي)

السيدة شيبستو : سيستغرق إعداده دقيقة واحدة.

الزائرة : لا. لا. لا أستطيع تناول أي شيء.

(تخيم لحظة صمت، ثم تسعى السيدة شيبستو إلى تلطيف الجو)

السيدة شيبستو : الطقس لطيف هذه الأيام، أليس كذلك؟ وغريب بالنسبة إلى هذا الوقت من العام. واستمتعت أمس بالمشي، لا أعلم متى استمتعت بشيء كهذا من قبل.

الزائرة : نعم. نعم.

السيدة شيبستو : انطلقت في باكورة الصباح المشرق إلى (تعد على أصابعها)



أبيركــون ثم طريق آبي فطريق مارلبــورو، ومنه إلى طريق الملكة في اتجــاه متنزه برمروز، ثم العودة عبر طريق بارك سنيت جونزوودز. أحسست بالانتعاش بدرجة كبيرة.

(تتوقف عن الكلام)

الزائرة	:	(تشرع بشــكل مفاجئ في الإفصاح عن سبب زيارتها) هل أنت السيدة ألبرت شيبستو؟
السيدة شيبستو	:	أجل.
الزائرة	:	أنا السيدة هوارد شيبستو.
السيدة شيبستو	:	(بشــيء مــن الاهتمام) عجبا! لدينا الاســم نفســه برغم غرابته، أليــس كذلك؟ هل تعود أصــول عائلة زوجك إلى لانكشاير بأي صورة من الصور؟
الزائرة	:	(باذلة بعض الجهد) كلا، ديفون.
السيدة شيبستو	:	(بشــيء من الإحباط) لم أكن أعلم بوجود أفراد من عائلة شيبســتو هناك. (بثقــة) لزوجي عمة تهتم كثيــرا بتاريخ العائــلات، ويمكنها تتبع تاريخ عائلة شيبســتو حتى الغزو النورماندي (١٠٦٦). كانت ستسر كثيرا بمعرفتك.
الزائرة	:	(تقاطعها على حين غرة) سيدة شيبستو، لقد وصلني هذا البارحة.

(تبحث في ارتباك عن شــيء في حافظة النقود والمفاتيح، ثم تخرج خطابا مختوما ومدموغا بشعار صاحب الجلالة، وتناوله للسيدة شيبستو التي تدرك فحواه قبل أن تفضه)

السيدة شيبستو	:	أيتها المسكينة!
الزائرة	:	(تنخرط في البكاء) تعرفين إذن هذا الشيء؟



السيدة شيبستو : كل امــرأة في المملكة تعرف هذا الخطاب وتخشــى اليوم الذي يُكتب عليها فيه أن تتســلم واحدا مثله. (تهز رأســها في تعاطف) فيمن كان مصابك؟ زوجك؟

الزائرة : (بــين الزفرات والعبــرات) لا. لقد مــات زوجي منذ عدة سنوات.

السيدة شيبستو : إذن هو ابنك؟

الزائرة : أجل ابني. ابني الوحيد.

السيدة شيبستو : حقيقة لا أدري ماذا أقول لك. (بعد برهة من الصمت)

الزائرة : انقطعت مراسلاته مدة أسبوع، ثم أتى هذا الخطاب. سقط قتيلا في لاباسيي في التاسع والعشرين من سبتمبر.

السيدة شيبستو : التاسع والعشرين؟ عيد القديس مايكل.

الزائرة : ما الفرق! لقد صار هذا اليوم من الآن فصاعدا أسوأ أيام العام بالنسبة إلي. ذهبت إلى المسرح في مساء هذا اليوم. ربما كان الخطاب في طريقه إليَّ في هذا التوقيت. وصلني أمس مع شــحنة البريد الأولى. لا يمكنك تخيل حالتي منذ تلك اللحظة.

السيدة شيبستو : (بصوت خفيض رقيق) بل أتخيل ذلك، فلدي ولد بالجبهة. (تصمت لحظة وتبتسم ابتسامة حزينة. لاتبدي الزائرة من جانبهــا أي ملحوظة ولايصدر عنهــا أي تعليق) لم يتطوع فــي الأيام الأولى للحرب، فهو وحيــدي كما ترين ولم أكن متحمسة لذهابه، ولأن كلينا فقط يعيش هنا فقد غلب علي الظن أنه تقع على عواتــق الأمهات اللاتي لديهن أكثر من ولد مسؤولية إرسال بعض من فلذات أكبادهن إلى الحرب. ليس لدي غير «توم». تناقشــنا في الأمــر. كان راغبا في التطــوع. أخبرني أن إنجلترا تحتاج إلى كل من يمكنه حمل



الســـلاح. نظر إلي وجال ببصره بين جنبات بيتنا الصغير الدافئ. أظنه قرأ تعابير وجهي ونظرات عيني ساعتها، إذ قرر أن ينزل علـــى إرادتي ويرجئ الأمر بعض الوقت. عاد في مســـاء يوم إلى البيت ليخبرنـــي أن أصدقاءه انخرطوا في ســـلك العسكرية، وأن «ديكي فيتزجيرالد» قد رقي إلى درجة عريف، وكيف أن رفيقه ضخم الجثة «ول تيبر» الذي أوسعه توم ضربا في المدرســـة والذي اعتقد الكثيرون أنه لن يرقى إلى شـــيء ذي أهمية قد حصل على وسام صليب الملكة فيكتوريا! ثم راح يمســـك بالصحيفـــة ويخبرني بأن «كيتشـــنر» في عوز إلى المزيد من الرجال. كنت أعرف أن هذا اليوم لا محالة آت، لكنني تمالكت نفسي قائلة: «نعم يا تـــوم. لقد ورثنا ماضيا تليدا من الجندية»، تدرين .. حارب جده في شبه جزيرة القرم، وتجري في عروقه هذه الدماء التي لم أفلـــح بمفردي في تهدئة فورتهـــا. لزمت الصمت وتوجهـــت إلى خزانة الملابس لأتأكد مـــن أن لديه ملابس داخلية وجوارب تقيه برد الشـــتاء. وانتظرت لحظة رحيله كل يوم مع حلول المســـاء. في صبيحـــة يوم من أيام الآحاد فرغ توم مـــن إفطاره وأزاح الصحن جانبـــا ثم من دون أن ينبس ببنت شـــفه نظـــر إليَّ نظرة أدركـــت معناها ورأيتها مرارا وتكرارا في أحلامي، لتوقظني فزعة مرتعشة متمنية أن يكون الأمر مجرد كابوس، لكنني قلت: «أجل يا توم».

(تحني رأسها وتصمت لحظة)

أخذنـــي بين ذراعيه، وشـــببت على أصابـــع قدمي، لأقبل شـــفتيه، فبادرني: «يا أمي الصغيرة. ســـوف أرحل غدا»، فأجبته: «نعم يا توم» فرفع كتفيه قائلا: «هناك أمور يجب أن يتحمل الرجل تبعاتها». في مســـاء اليوم التالي جلست وحدي أتناول العشاء.



الزائرة : (برفق، بعد مرور برهة) أعرف هذا الإحساس.

السيدة شيبستو : (تومئ برأسـها ماسحةً عبراتها) روضت نفسي على قبول واقع أن في الجبهة العديد من فلذات الأكباد الذين يمثلون كل شـيء لأمهاتهـم، لكننا نميل إلى عـدم تصديق ذلك.. وهذه هي ضريبة الأمومة.

الزائرة : (وكأنها تحدث نفسها) كلهن سواء، أليس كذلك؟

السيدة شيبستو : (مـن دون أن تجيب) كان القلق ينتابني من جراء شـجاره عندما كان في المدرسة. لم يكن ولدا سيئ الطباع، لكنه كان مولعا باللعب والمناكفة، ويجد دائما ما يشغله. (تبتسم)

في أحد الأيام عاد إلى المنزل وكله جروح. تسـلق سـارية العلـم ثم تزحلق عليها بسـرعة. لو أتى أي شـخص بهذه الفعلة لخرج منها برجل مكسورة على أقل تقدير، لكن توم لم ينزعج بالمرة، ولـم يكن يضيره أن يفعلها ثانية لو نحينا ألم الجـراح جانبا. في يوم آخر وقع مـن النافذة، إذ كان يتبـارى مع أترابه، من يا تري يمكنه أن ينحني من النافذة بمسافة كبيرة. حسم المنافسة لمصلحته، لكنه سقط...

(تتوقف برهة ثم تستأنف)

حسـن. بعد وقوع بضع من الحوادث على شاكلة ما سردت أدركت في قرارة نفسـي أن توم لم يكتب عليه أن يقتل وإلا لأودت هذه الأشياء بحياته منذ أمد. وهذه هي الفكرة التي تسكن رُوعي اليوم وتدخل الطمأنينة إلى نفسي.

(تباغت باب الذكريات فتوصده)

أرجو المعذرة. لقد نأيت بتفكيري، فشغلني عن وجودك.

الزائرة : لا تعتـذري. لقد كنت أفكـر في ابني على نفـس الوتيرة والمنوال.. مشاكسـاته في مدرسـة إيتـون وعللها؟ مجرد التفكير فيها يجعل شعر رأسي يقف خوفا ورهبة. ولم يكن

أمره أحسن حالا في جامعة كيمبردج. فبعد ستة أشهر من دخوله هذه الجامعة أصيب في رأسه في أثناء لعب البولو.

السيدة شيبستو : كان ابنك يلعب البولو؟ (بسذاجة) لا بد أنكم أثرياء.

الزائرة : (في خجل) لقد كان السيد شيبستو موسرا.

السيدة شيبستو : (في تشوق للمعرفة) ماذا كانت صنعته؟ زوجي كان يتاجر في الحديد.

الزائرة : لم يكن لديه عمل.

السيدة شيبستو : (مندهشة) ماذا؟

الزائرة : لقد كان رجلا ذا أصول نبيلة وصاحب ثروة تغنيه عن الكدح والعمل.

السيدة شيبستو : (تحت تأثير انطباع قوي) رجل نبيل غني! ما رأيك؟

(تهز رأسها) لقد تمنيت دوما الثراء فقط من أجل أن ينعم ابني بهذه الأشياء على غرار إيتون وكيمبردج والبولو والتي لم يكن في مقدوري ولا في وسعي أبدا توفيرها له. (شاخصة إلى الزائرة باحترام زائد) مؤكد أن ابنك كان ضابطا بالجيش.

الزائرة : تطوع في اليوم الذي أُعلنت فيه الحرب. كان غضا قليل الخبرة. كان بإمكاني أن أحصل له على تكليف ليخدم كضابط بالجيش، لكنه رفض الفكرة متعللا بأنه ليس جديرا بقيادة الرجال الذين يفوقونه حنكة ودراية.

السيدة شيبستو : (بإعجاب) فكر طيب وصنيع حسن، أليس كذلك؟ مؤكد أنه أُلحق بأحد معسكرات التدريب.

الزائرة : نعم.



السيدة شيبستو	:	لقد فعلوا الشـــيء نفسه مع ابني. ضُم إلى أحد معسكرات التدريب مع الصفوة ثم...
الزائرة	:	إلى فرنسا؟
السيدة شيبستو	:	(بنبرة مختلفة) نعم إلى فرنسا.
		(تسود فترة صمت يبدو خلالها على الزائرة بوضوح انشغال البال وتعكر المزاج، ثم تواصل بشكل مفاجئ)
الزائرة	:	سيدة شيبستو. لا أدري كيف ستتقبلين ذلك، ولكن...
السيدة شيبستو	:	نعم؟
الزائرة	:	إنك تضفين لمســـة من الروعة على كل ما أفضيت به، وهو الأمـــر الذي يجعلني لا أعرف كيف أبدأ طرح ما جئت إلى هنـــا خصيصا لأقوله. (تتوقف بين اللبس والغموض، بينما تلزم الســـيدة شيبستو الصمت. تواصل الزائرة بجرأة) هل تعرفين شخصا يدعى سافورد؟
السيدة شيبستو	:	سافورد؟
الزائرة	:	الملازم النبيل سيسل سافورد.
السيدة شيبستو	:	النبيل؟ كيف تتأتى لي معرفته؟
الزائرة	:	(تتحاشى أنظار السيدة شيبستو) لقد أصيب إصابة بالغة منذ فترة مضت أقعدته عـــن الحركة فبقي حبيس المنزل. كان يخدم مع ابني في الفوج نفسه عندما وصلني الخطاب توقفت ببابه للزيارة.
السيدة شيبستو	:	(في توقع) وأخبرك أن ابنك مات ميتة بطولية.
الزائرة	:	(تقاطعها في شيء من الإثارة التي تحوي في باطنها بعضا من الفظاظة) لم يكن قد ســـمع بهذا الأمـــر، لم يعلم عنه

		شــيئا حتى اللحظة التي أخبرته فيها. لقد ترك الفوج بعد إصابته كما أخبرتك.
السيدة شيبستو	:	آسفة. لقد نسيت.
الزائرة	:	لقــد أصابه الخبر بالصدمة. كان وابني صديقين حميمين منذ تعارفا في كيمبردج، لكن فجأة خطر بباله...
		(تتوقف عن الكلام)
السيدة شيبستو	:	(تستحثها على المضي في الحديث) نعم؟
الزائرة	:	(تشيح بوجهها) لا أدري كيف ستتقبلين قولي، وهو لعمري مهول. (باســتماتة اليائس) لكنــي أم - كما تعلمين - وهو ابني الوحيد. تذكر الملازم ســافورد فجــأة أنه كان هناك شاب آخر بالفوج يحمل الاسم نفسه.
السيدة شيبستو	:	(تنهض مذعورة) اسم ابنك نفسه؟ ماذا تعنين؟
الزائرة	:	(تنهض هي الأخرى) اسم ابنك هو توم شيبستو؟
السيدة شيبستو	:	بمعنى؟
الزائرة	:	(تواجهها بشفتين منطبقتين)
		هذا هو الاسم!
السيدة شيبستو	:	(بنحيب) كيف تجسرين؟
الزائرة	:	(بتصميم شديد) كل الخواطر واردة لأم ثكلى. الاسم نفسه. الفوج نفسه. ربما كان في الأمر خطأ.
السيدة شيبستو	:	كيف تجرئين؟
الزائرة	:	القتيل هو ابني أو ابنك!
السيدة شيبستو	:	لم يُكتب على ابني ان يموت قتيلا.

الزائرة	:	كان عندي الاعتقاد نفسه بالنسبة إلى ابني.
السيدة شيبستو	:	لكني أعلم!
الزائرة	:	ذهبت إلى وزارة الحرب وهناك أخبروني...
السيدة شيبستو	:	(مقاطعة) أنه لا يوجد خطأ؟
الزائرة	:	(مؤكدة) أنهم سيسعون إلى التأكد من الأمر. (تفتر همتها وتخور عزيمتها فجأة) اسمعيني يا سيدة شيبستو، لقد حاولوا التأكد خلال الأربع والعشرين ساعة التالية لذلك، وكدت أصاب خلالها بالجنون. مرت علي وأنا أنتقل بين هدى وضلال من موظف وآخر. لا بأس بهم. يتعاملون بود ولطف، لكنهم لا يعرفون.. (بتهكم مثير للشفقة) وسيسعون إلى التأكد! في غضون ذلك..
		(يلم بها الكرب والألم فتتوقف عن الحديث)
السيدة شيبستو	:	(تستعيد قدرا من اتزانها ورباطة جأشها) ليس ابني. لقد وصلني منه خطابٌ أمس.
الزائرة	:	لقد وصلني خطاب من ابني اليوم!
السيدة شيبستو	:	(فزعة) لا!
الزائرة	:	مؤرَّخ بتاريخ الثامن والعشرين.
		(بينما تلقي السيدة شيبستو بنظرات الشك والريب، تفتش الزائرة بارتباك في حقيبتها وتخرج ورقة مجعدة) ألا تصدقين؟ اسمعي: «أمي العزيزة» (تختنق بالدموع فتتناول السيدة شيبستو الخطاب)
		اقرئيه بنفسك إذا شئت.
السيدة شيبستو	:	(تتراجع في فزع) لا. لا.



الزائرة	:	لم أستطع تحمل كل هذا بمفردي. كان الأمر أكبر مما أحتمل، فقصدت بابك، لذا يجب أن تسمعيني. إنك المرأة الوحيدة في العالم التي يتعين عليها أن تشاركني هذه المحنة.
السيدة شيبستو	:	(بتعبيرات الاشمئزاز) أيتها المتوحشة.
الزائرة	:	لديك حق! سبيني كما يحلو لك، وانعتيني بأفظع الأوصاف. أقدِّر ما تشعرين به، ولو أني مكانك لتملكني الشعور نفسه، لكن لا بد مما ليس منه بد. شاهدت في وزارة الحرب مئات الأمهات يَنْشُدْنَ معرفة الحقيقة، يجرين من موظف إلى آخر ومن باب إلى آخر بغية الوصول إلى اليقين. لم يكن لديهن الوقت لسماعي. كن مشغولات عني بقصص همومهم، لكن ينبغي عليك أنت أن تسمعيني!
		(تسود فترة توقف وجيزة)
السيدة شيبستو	:	(تشير بإبهامها المرتعش)
		الباب، الباب!
الزائرة	:	ماذا؟
السيدة شيبستو	:	(محاولة التحكم في نفسها) أغربي، وإلا طرحتك خارج البيت.

(ينطلق جرس الباب، فتتسمر المرأتان في مكانهما، تواجه كل منهما الأخرى، ثم تتمالك السيدة شيبستو نفسها وتغادر الحجرة بتؤدة. يسمع بعد برهة صوت خفق وتشنج يدعو إلى الأسى. يشرئب عنق الزائرة لترى ما الخطب، ثم تندفع نحو الباب وتفتحه برجة شديدة فترى السيدة شيبستو تمسك بيدها خطابا ولا تقوى رجلاها على حملها وكأنها تتداعى للسقوط)



الزائرة : (في عاطفة هستيرية جياشة) كنت على حق! عرفت ذلك! الشكر لك يا رب! كنت على حق! كنت على حق!

(تدخل السيدة شيبستو الحجرة، فتبدو كامرأة عليلة سقيمة، وتتقدم بخطى بطيئة مترنحة. تستعيد الزائرة رباطة جأشها فجأة، لكنها لا تحرك ساكنا إلا أنفاسها السريعة المتلاحقة وانتفاض شفتيها بشكل عصبي)

السيدة شيبستو : (بصوت يخلو تماما من المشاعر) دعيني أرَ خطابك.

الزائرة : نعم. نعم. بالطبع. (تناولها إياه)

التاسع والعشرون من سبتمبر. ابنك

الزائرة : لا. بل ابنك أنت.

السيدة شيبستو : (بنفس النبرة الخالية المتجردة من الأحاسيس) ابني.. لقي مصرعه في الثاني من أكتوبر في لوس.

الزائرة : (بصوت خفيض، خافت وشاحب) ماذا؟

السيدة شيبستو : لوس. الثاني من أكتوبر.

الزائرة : (في هلع) أعطني الخطابين.

(تخطفهما من اليد الباردة للسيدة شيبستو وتقارنهما، ثم تطلق صرخة من نياط قلبها)

كلاهما!

السيدة شيبستو : (بإذعان وتسليم)

كلاهما.

الزائرة : (يفلت الخطابان من يدها، فيسقطان على أرضية المنزل)

آه! يا إلهي!

(تسود فترة صمت وجيزة تواجه خلالها المرأتان كل منهما الأخرى، أيديهما مطبقــة بعصبية وفماهما فاغران بعض الشــيء وكأنهما وحشـــان في وضع الانقضاض. في هذه اللحظة بدت كلتاهما أكبر من عمرها الحقيقي بشكل كبير، وأخذت أنفاس السيدة شيبستو تتصاعد وتتعاقب على نحو سريع في مواجهة السيدة الأخرى التي راحت تلهث كأرنب في مواجهة ثعبان. بعد انقضاء برهة يبدأ الندب والنحيب والعويل وتنهار كل منهما في أحضان الأخرى)

السيدة شيبستو : أيتها المرأة المسكينة! أيتها المرأة المسكينة!

(ستار)

***



تحليل فني للمسرحيتين

بقلم الدكتور نديم معلا (*)

أولا: أمهات الرجال

ليس في مسرحية بيرسيفال وايلد «أمهات الرجال» حدث سوى وصول السيدة شيبستو إلى منزل سميتها الأخرى شيبستو، ومن ثم ينكشف الداخل لدى السيدتين عبر لحظات توتر لا يكاد يتوقف.

ولعل هذا التوتر المستمر هو الذي يعوّض عن حبكة فاعلة، قد تنطوي على التوتر والتشويق في بناء درامي تقليدي.

كل شيء كان يسير وفق إيقاع حياة عادية لأرملة فقدت زوجها ولم يبق لها إلا ذكرياتها، التي تستدعيها من الماضي، والتي يختلط فيها الجميل المشرق بالمحزن المعتم، شأنها في ذلك شأن كل ماض يقبع بعيدا عن الحاضر، الذي يمسك بالإنسان وحراكه ويهيمن عليه، فلا يقوى على الفكاك منه، إلا للحظات سرعان ما تتلاشى.

تصحو السيدة «على وخز الحاضر وغصته». ينهض هذا الحاضر وقد استوى، فارضا هما وطنيا وإنسانيا في آن معا: «ابن يحارب في مكان ما في فرنسا وتتوق نفسها إلى رؤيته».

كل شيء بدا روتينيا إلى أن قُرع جرس الباب! ودخلت الزائرة شيبستو الأخرى (التي يكتفي الكاتب بالإشارة إلى ملابسها ليدل على وضعها الاجتماعي، وليمايزها من خلال أناقتها).

(*) أستاذ النقد المسرحي - سورية.

تعقد الإثارة والقلق لسان السيدة الزائرة، يخيم صمت يحول دون الكلام. إنه الترقب والخوف مما يمكن أن تفصح عنه صاحبة البيت.

فكل شيء يتوقف هنا على الأخرى، لا أحد يدرك خطورة هذا اللقاء إلاها هي. القارئ – أو المتفرج – يجهل مثله في ذلك مثل صاحبة البيت شيبستو، لأن الكاتب لم يقدم أي دلالات على أهمية اللقاء وخطورته، في إرشاداته المسرحية.

الصمت وحده سيد الموقف. وكعادة الإنجليز ينحرفون بالحوار نحو الطقس إذا لم يجدوا الكلمات المناسبة، فيكون هذا الأخير المفتاح الذي يفتح باب العالم الداخلي للشخصيتين الوحيدتين، الحاضرتين بأبعادهما الجسدية، لأن الشخصيات الغائبة، وهي هنا الزوجان والابنان، لها حضورها المجازي، إذا صح هذا التعبير، والذي على الرغم من مجازيته يشكل الدافع، إلى الحركة (حركة الزائرة نحو السيدة صاحبة البيت).

يبدأ الكاتب بالتأسيس لعقدته التي سيمضي بها إلى النهاية – الحل، وعليه أن يميط اللثام عن طبيعتي الشخصيتين أيضا، ليضعهما الواحدة في مقابل الأخرى، على الرغم من أن مثل هذه المقابلة لا تفضي إلى المواجهة أو مقاربة أي نوع من الصراع.

تتقدم السيدة الزائرة باتجاه هدف زيارتها، فلم تعد قادرة على الصمت أكثر من ذلك، ولم تعد أعصابها تتحمل الغليان الداخلي، وما يمكن أن يجلوه اللقاء.

وهكذا حسمت أمرها وقررت أن تقول ما لديها.

«هل أنت السيدة ألبرت شيبستو؟»

السيدة شيبستو: أجل

السيدة الزائرة : «أنا السيدة هوارد شيبستو».

وتسعى الزائرة إلى الوقوف على الحقيقة، ولذلك فالثرثرة التي تبدأها المضيفة عن العائلة والأصول والجغرافيا، لا معنى لها.

الرسالة الممهورة بخاتم صاحب الجلالة علامة تقرأها المضيفة، من دون أن يخطر لها أنها «هي الأخرى مسكينة!».

تغادر الآن الزائرة الصمت وتشعر بأنها تخرج عليه، لأن الأم وهي في قلب الترقب، تُهزم أمام الشخصية المتماسكة، التي حاولت أن تبرزها، ليس لها أن ترتدي مسوح العقلانية بعد هذه اللحظة. إنه ابنها الوحيد.

ولعل الكاتب الذي يُبقي على حيادية المضيفة، أو في أفضل الأحوال على تعاطفها الإنساني، يُصعّد من انفعال الزائرة، لكيلا يكون ثمة توازن بين الشخصيتين، يلجم الاندفاع الى الأمام.

الزائرة: سقط قتيلا في لاباسي في التاسع والعشرين من سبتمبر.

لم تعد تكترث بالطقوس الدينية، لم يعد يهمها عيد القديس مايكل. إنه الدنيوي الذي يعلو على المقدس.

يغدو الابن وحده الجدير بأن يكون المقدس، وهو الذي استجاب لنداء الوطن الذي لا يقل قدسية، في نظر الأم الثكلى عن الطقسي التقليدي.

تستعيد الوقت الموازي للحدث الجلل. كانت في المسرح في مساء ذلك اليوم، وكأنها نادمة على ذلك.

فلو عرفت أنها ستتسلم مثل هذه الرسالة، لربما آثرت ألا تذهب. ربما فعلت شيئا ما. ربما استعدت!

يعطي الكاتب في الجانب الآخر للشخصية الأخرى (المضيفة) فرصة الكلام، لكي



يبدأ بعض التوازن بينهما، فالمضيفة التي ظلت مستمعة، تنتقل الآن إلى وضع المتكلمة (المرسلة)، وبالتالي تروي قصتها هي ووحيدها (توم) الذي جرفه التيار الوطني العارم: «أخبرني أن إنجلترا تحتاج إلى كل من يمكنه حمل السلاح»، و«أن أصدقاءه انخرطوا في سلك العسكرية»، و«أن بعضهم حصل على وسام الملكة فيكتوريا»!

وهكذا أصبحت السيدتان متعادلتين الآن، فلكل منهما ابن تخشى عليه. ولا بد من «دفع ضريبة الأمومة»، كما تقول السيدة شيبستو المضيفة.

ومادامت الشخصية الغائبة، لايمكن لها أن تشارك في الحوار، وتضيء جوانب حياتها التي لا نعرفها، من خلال أفعالها، فإن الشخصية المتكلمة، تتولى هذه المهمة.

وتكون الصورة عاطفية، بل مغرقة في عاطفيتها، لاسيما أن الماضي الذي يجري استدعاؤه، يكتسب «مثالية» من نوع خاص، ويغدو كل تفصيل من تفاصيل حياة الابن مهما، بدءا من المشاكسة الصبيانية، وانتهاء باللحظات التي سبقت التحاقه بالجندية.

بل إن السيدة المضيفة، وقد أخذتها متعة إعادة إنتاج الماضي، ذهبت إلى أبعد من ذلك، حين راحت تتكئ عليه، لتثبت أن «توم لم يُكتب عليه القتل».

السيدة شيبستو: «في أحد الأيام عاد إلى المنزل وكله جروح، تسلق سارية العلم ثم تزحلق عليها بسرعة. ولو فعل ذلك أي شخص آخر لخرج منها وقد كسرت رجله على أقل تقدير، وفي يوم آخر تبارى مع أترابه؛ من يا ترى يمكنه أن ينحني من النافذة بمسافة كبيرة. حسم المنافسة لمصلحته لكنه سقط...».

إنه الغريق الباحث عن قشة كما يقولون، تحصين داخلي قوامه الوهم، ضد الخطر القادم، أو الموت القادم.

ولم تكن الزائرة لتختلف في تفكيرها عن المضيفة. فهي الأخرى تركت لذاكرتها العنان، وأفاضت في الحديث عن اللحظات الحرجة التي مر بها ابنها.



لكن عبارتين استوقفتا شيبستو المضيفة: «لعبة البولو» وربما «كامبريدج» أيضا. ولعلهما العلامتان الوحيدتان اللتان تدلان على الوضع الطبقي الذي تريث الكاتب في الإشارة إليه.

فالمهم في ظروف الحرب، تجاوز كل ما يقوض الوحدة الداخلية.

السيدة شيبستو (المضيفة): كان ابنك يلعب البولو؟ لا بد أنكم أثرياء! ولم تقوَ السيدة شيبستو الزائرة، وقد باغتها السؤال، على التهرب من الجواب: «لقد كان موسرا، كان يتاجر في الحديد».

وعلى الرغم من ظروف الحرب التي تخيم على البلاد، فإن الكاتب في إرشاداته المسرحية، يومئ إلى «خجل» السيدة الزائرة و«فضول» السيدة المضيفة.

لعلها لحظة الافتراق، وليس الاختلاف، فليس في النص صراع، وإذا كان له أن ينهض، فمن نافلة القول أن الحرب كفيلة بإقصائه.

ومع ذلك لم تستطع المضيفة إخفاء حقيقة أنها تغبطها، وهي «التي تمنت دوما الثراء من أجل أن ينعم ابنها بهذه الأشياء على غرار أيتون وكامبريدج والبولو...».

ويورد الكاتب الجملة التالية في إرشاداته المسرحية «شاخصةً إلى الزائرة باحترام زائد». ويبدو أن الاحترام الزائد اقترن بالغنى أو «بالمال الزائد». إن الإيماءة هنا تعبر عن الشعور وليست الكلمة.

ولم يكن غريبا أيضا أن تستطرد قائلة: «من المؤكد أن ابنك كان ضابطا في الجيش»، فالتعليم في جامعة راقية، إذا ما أضيف إليه المال، لا بد أن يجعل من ابنها ضابطا! ومن الواضح أن الكاتب يحاول أن يملأ الفجوة قبل أن تتسع، فهو لايرمي إلى التصعيد أو التهويل الاجتماعي، لذلك وجد حلا يجمع بين السيدتين، وهو أن يُلحق كلا الولدين بمعسكر التدريب، «فابن الزائرة شعر بأنه ليس جديرا بقيادة الرجال، الذين يفوقونه حنكة ودراية». ويغلق الباب ثانية في وجه أي تفاوت اجتماعي، يمكن



أن يُفسد اللحمة الوطنية، أو يمزق النسيج الوطني.

ويتكدس التوتر الدرامي إذ يتضح أن الشابين يخدمان في فرنسا. أي أن كليهما سيق إلى معسكر في فرنسا! إنه إشكال المكان أيضا، ولم يعد مجرد إشكال في الاسم! تصمت الزائرة، إذ تضاعف قلقها وتعكر مزاجها.

ولا تدري كيف تفضي بما لديها، إنها الآن كمن يمشي على أرض مملوءة بالألغام. ولا بد لها من أن تنتقي كلماتها بدقة، وأن تمهد لها، كيلا يكون وقعها صاعقا كما تعتقد.

يخالجها شعور يشبه اليقين بأنها – السيدة الزائرة - في المكان الآمن، وأن الخطر يهدد «الآخر».

فثمة من أكد لها أن كل شيء على ما يرام بالنسبة إلى ابنها، والمصيبة هي لدى هذا الآخر (المضيفة).

ويلجأ الكاتب مرة أخرى، بل ربما ثالثة ورابعة أيضا إلى الصمت. الزائرة هي التي تلوذ به في حين أن المضيفة تحثها على المضي في الكلام.

وتكون الإيماءة (تشيح بوجهها) بديلا عن الكلمة، ولكيلا يكون رد الفعل صادما ومباشرا.

الزائرة: كان هناك شاب آخر يحمل الاسم نفسه.

السيدة شيبستو المضيفة (تنهض مذعورة): نفس اسم ابنك؟ ماذا تعنين؟

الزائرة: (تنهض هي الأخرى): اسم ابنك هو توم شيبستو؟

هذه هي الذروة تطل برأسها. ولم يعد بالإمكان الجلوس والشعور بالأمان، أو التظاهر به. هاهي ذي السكين تصل إلى العنق.



الزائرة: إما أن يكون ابني أو ابنك.

السيدة شيبستو: لم يُكتب على ابني أن يموت قتيلا.

تخال كلتا السيدتين أن ابنها عصي على الموت، وأن ابن الأخرى وحده هو الذي يمكن أن يسقط في المعركة!

لعله ذلك الاسترخاء المطمئن، الذي يمكن أن يُعزى إلى تجارب الماضي.

يتبدد الوهم فجأة، وتدهم الحقيقة السيدتين: لا بد أن يكون أحدهما. وتكاد تجري معركة مضمرة بينهما. كل واحدة تدعي أن الرسالة التي تلقتها من ابنها، هي الأحدث! كل ذلك ولم تنتقل المعركة إلى العلن. كل ذلك والتوازن النفسي لايزال مستمرا ولاتزال الحالة متشابهة.

ابن هذه أو ابن تلك. ولم يبق إلا الإمساك ببعض رباطة الجأش. كل لحظة تحمل توترها الخاص، من الخوف والدموع والارتباك.

تبحث الزائرة عن شريكة تقاسمها المحنة، تقف إلى جانبها إذا أوشكت على السقوط. وهنا تبدأ كل شخصية بالبوح الإنساني للشخصية الأخرى. إنها حاجة الإنسان إلى الإنسان، وعجز الفرد عن مواجهة الكارثة وحيدا.

ولقد أسقط الكاتب الحواجز التي يمكن أن تحول دون التواصل، ومضى إلى لقاء الألم بالألم، والتخفيف من ثقله.

السيدة الزائرة: لم أستطع تحمل كل هذا بمفردي. كان الأمر أكبر مما أحتمل. إنك المرأة الوحيدة في العالم، التي يتعين أن تشاركني هذه المحنة.

وبدلا من أن تستجيب شيبستو، صاحت وهي مشمئزة: «أيتها المتوحشة».



تدير هذه الأخيرة ظهرها إلى الواقع، وترفض أن تسمع. إنها ليست الشريكة التي تبحث عنها الزائرة! بل إنها في نظر المضيفة متوحشة، لأنها تلقي الحقيقة على وجهها. هكذا وبكل جرأة، والواقع أن الزائرة ليست هي المتوحشة، بل هي الحقيقة ذاتها.

ولو حدث تبادل للأدوار بين الشخصيتين، لما اختلف الوضع: «لو أنني مكانك لتملكني الشعور نفسه». لا بد مما ليس منه بد. ولسوف يصل النهر إلى المصب، وكأنه يجري وفق خط لا فكاك منه.

وبين أن تسمع – أو بعبارة أخرى توافق على الاستماع – والتهديد بالطرد، يتواتر السجال الانفعالي إلى أن يدق جرس الباب.

وتتحرك الدلالة التي لا يمكن أن تُقرأ إلا في سياق ما يحدث. ويُترك للجانب البصري المبثوث في ثنايا الإرشادات المسرحية – أو كما تدعى نص المخرج – الكلام.. الثبات في المكان.. المواجهة وللمرة الأولى بين السيدتين.

تستجمع السيدة شيبستو (المضيفة) نفسها، وتسير بهدوء وتثاقل إلى الباب. تشنج وصوت مخنوق. إنها الرسالة في يدها، وجسدها المتهاوي لا يقوى على حملها.

يقتصد الكاتب في الحوار، لأنه تعطل ولم يعد سوى متكلم. توقف التبادل حيث لا استجابة من المضيفة السيدة شيبستو، التي استسلمت لجسدها العليل، وتركته يعبر عن الداخل المنهك.. «امراة عليلة سقيمة تتقدم بخطى بطيئة مترنحة ...».

في حين أن العاطفة الهستيرية الجياشة، التي تزامنت مع الإحساس بالانتصار: «كنت على حق! كنت على حق !»، لدى الزائرة بدأت تخبو.

لم تعد الانفعالات تنفع أمام برود الحقيقة، ولقد أدركت المضيفة ذلك فتجردت من الأحاسيس : «لقي ابني مصرعه في الثاني والعشرين من أكتوبر في لوس».

كلاهما! هكذا تصرخ الزائرة، وترد عليها شيبستو المضيفة: كلاهما.

الأيدي المطبقة بعصبية والفمان الفاغران تظهرهما وكأنهما وحشان في وضع الانقضاض! لعلها الدقائق الأخيرة التي تسبق العاصفة الأخيرة.

الصرخة الأخيرة المدوية التي تعلن الوداع. هاهما الآن تتحدان وتتوحدان كأن المرأتين أصبحتا واحدة، وكأن الجسدين اللذين كانا على وشك أن ينفي أحدهما الآخر، اندمجا وتماهيا.

ما يلفت الانتباه أن النص لم يجنح إلى الميلودراما، على الرغم من وجود بعض علاماتها. فقد تم كل شيء بعيدا عن التهويل أو المباغتة الصاعقة أو العنف الشرير.

دوت الصرخة في الداخل، ووصلت الرسالة شفيفة، واتجهت الأزمة إلى الحل. كلاهما مات دفاعا عن وطنه.

مسرحية قصيرة شديدة التكثيف. ولكنه ليس ذلك التكثيف المُخل. بل أنقذها من السرد الممل والحوار الإنشائي الطويل، الذي لا طائل منه.

إنها مسرحية شخصيات بامتياز، والحدث فيها يُذكر بنظيره في مسرحيات تشيخوف: الوصول والرحيل (كما الحال في الخال فانيا)، ولكن ما تختزنه هاتان الشخصيتان داخلهما من قوة نفسية، ومن قدرة على التحمل، وقدرة على المباغتة، يجعلهما من تلك النوعية التي تلج ذاكرة المتلقي أو المتفرج، وتوصد الباب خلفها.



بيرسيفال وايلد في «أمهات الرجال» أو «أمهات الجنود» يحتفي بالمكان المغلق (لا تغادر السيدتان الشقة الضيقة التي لا تطل على شرفة أو حديقة)، والفضاء الدرامي إضافة إلى الشحن المتصاعد، يضع الشخصية فيما يشبه السجن.

وعندما يغدو الحاضر مصدر قلق مطرد، يتحول الماضي إلى «نوستالجيا» مفعمة بالرقة، وتعويذة قد تفلح في إزاحة ما قد تحمله الأيام المقبلة.

***

هذه السلسلة:

للكويتيين تجربة مبكرة في المسرح، فقد أدرك رواد العمل الثقافي المستنيرون أهمية دوره الحيوي وما يمكن أن يقدمه من تطور وتنمية لمجتمعهم، وعلى الرغم من اقتران انطلاقة المسرح الأولى بالمؤسسة التعليمية (المدرسة) مع بداية ثلاثينيات القرن الماضي، فإنه لم يكن مسرحا تعليميا تربويا فقط، بل كان مسرحا يشارك بنصوص جادة، قدم بعض قضايا المجتمع والحياة العامة إلى جانب تناوله أمجاد العروبة وتاريخها الإسلامي، وامتدت عروضه خارج أسوار المدرسة خلال العطلات الصيفية وخارج الوطن بصحبة الدارسين في القاهرة في بيت الكويت.

وظلت الدولة على اهتمامها بهذا الفن وتشجيعه ورعايته بالتمويل والإشراف بعد انتقال مسؤوليته إلى دائرة الشؤون الاجتماعية، وتخصيصها إدارة للمسرح والفنون ورعاية شؤون الفرق المسرحية، حتى انتقلت إلى وزارة الإرشاد والأنباء (وزارة الإعلام في ما بعد)، وتطور معهد الدراسات المسرحية إلى معهد عال لدراسة الفنون المسرحية أكاديميا.

وفي سبيل تنمية الوعي الفني المسرحي وإثرائه فكريا وأدبيا، ارتأت الوزارة إصدار ونشر سلسلة من المسرحيات العالمية المترجمة، لكبار الكتاب المتميزين على الساحة المسرحية العالمية، وأن تكون ترجمتها للعربية عن اللغة الأصلية للنص المسرحي، وتخضع للتحكيم العلمي، وكان يشرف عليها الشاعر الراحل أحمد العدواني، والدكتور محمد موافي أستاذ الأدب الإنجليزي، والمسرحي الكبير زكي طليمات، وصدر العدد الأول من سلسلة «من

المسرح العالمي» في أكتوبر عام ١٩٦٩ يحمل عنوان مسرحية «سمك عسير الهضم» للكاتب الغواتيمالي مانويل غاليتش، وترجمة الدكتور محمود علي مكي، وتوالى صدورها إلى أن بلغت ٣١٣ عددا حتى عام ١٩٩٨، بعد أن انتقلت مسؤولية إصدار السلسلة إلى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، وقد تناولت نحو ٤٢٠ مسرحية عالمية (مع ملاحظة أن بعض الأعداد قد اشتمل على أكثر من مسرحية)، ولكل مسرحية مترجم ومراجع ودراسة تحليلية فنية ونقدية شملت خصائص النص وكاتبه.

عندما قرر المجلس الوطني في نوفمبر ١٩٩٨ دمج هذه النصوص المسرحية العالمية المترجمة ضمن نصوص لأعمال أدبية أخرى مختلفة بين القصة والرواية وأدب الرحلات والسير الإبداعية، وصدرت تحت عنوان «إبداعات عالمية»، وبعد مضي تسعة أعوام على ذلك، أبدى كثير من المهتمين بشؤون الحركة المسرحية في البلاد وخارجها الشوق إلى إعادة طباعة بعض هذه النصوص المسرحية الإبداعية المختارة.

لقد اعتبرت سلسلة «من المسرح العالمي» أضخم مشروع قومي عربي من منظور الترجمة والتركيز على مجال فني متخصص واحد، وإنه ليسعد المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب إعادة هذا الكنز المفقود إلى أيدي عشاق المسرح وهواته في الكويت ومختلف أرجاء الوطن العربي، في هذا الإصدار الثاني الذي بدأ بإعادة طبع رائعة شكسبير «العين بالعين».

بدر سيد عبدالوهاب الرفاعي

سعر النسخة

الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي	نصف دينار
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولارا أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص. ب: ***28623*** - الصفاة - الرمز البريدي ***13147***

دولة الكويت